ستاندال والحب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

ليس كوروا من يتحدث عن الكتاب والشعراء . وليس كتله في سلاسة أسلوبه وتدفق ألفاظه وحلاوة معانيه . إنه كالساقية اللاهية تسقي وتروي ثم تمضي ، وقد خلفت وراءها الخصب والحياة . أو كالزهر الفواح يروقك مرآه ، ويسكرك شذاه ، سذاجة وصفاء ، ولكنها سذاجة ملؤها التنوع والجمال

لقد تحدث عن « شلي » أبرع الحديث ، وقص مغامرات « بيرون » أحسن القصص ، وعرض حياة « دزرائيلي » أجمل معرض ، وسرد أعمال « ليوتي » كأعظم ما كتب كاتب ، وصور « شاتبريان » بما لم يصوره قبله إنسان . وها هو ذا الآن يتحدث عن « خمس صور من الحب » ويتكلم على ستاندال .

وستاندال إذا تحدث عن الحب فأجبب به من متحدث ، وأكرم به من خبير ! لقد بلا الحب وطعم ذواقه ، ثم وصفه وعرفه وتساءل كيف ينبغي أن يكون الرجل مع النساء ؟ أيكون معهن كما كان « دون جوان » . أم مثل « فرتر » الهيمان ؟ أيكون صياداً محارباً أم عاشقاً مدنفاً ؟ لقد كان ستاندال يعجب بدون جوان ، لأنه رمز الشجاعة والإقدام ؛ وفي الوقت نفسه رمز الهدوء والهزؤ بالناس

والحق أن الناس جميعاً ، كما يقول موروا ، يعجبون بمن كان كدون جوان ؛ ولكنهم يعرضون به ويثلبونه ، في حين أن العشاق المتيمين أشباه فرتر المسكين ، يشفهم السقم ويضنيهم العذاب ، ويشعرون أنهم سعداء . سعادتهم في الخيال ، يبنون القصور الشامخات ويزركشونها بأحلى التهاويل . فهي أبداً رفافة بالنعيم ، يعيشون ويحلمون ، لأن الحب على نهج فرتر يعد لقبول كل فن رفيع وإحساس كل شعور لطيف

إن دون جوان يرى النساء عدوات لدودات . والحب في عينيه حرب ونضال . هو لا يتحدث عن شيء سوى المغامرات والانتصارات ؛ أما أتباع فرتر فأولئك هم الهائمون وبأحلامهم قانعون وبحسراتهم وزفراتهم راضون

ودون جوان إلى ذلك يختصر الحب . إنه أمر هين ينتهي دائماً بالفوز . ولذلك يفكر كالقائد العظيم في الحيل التي يبلغ بها مشتهاه .. يعمل دائماً على نجاح أعماله ونفاذ حيله

الحب أمر هين ، وكله ينطوي في « التبلور » وصاحب نظرية « التبلور » هو ستاندال الذي وقف حياته على الحب . وكان الحب ، كما قال ، أعظم الأعمال طراً لديه ، بل كان شغله الشاغل الوحيد

لقد خص به كتاباً من الكتب العظام ... وروايات من الروايات العجاب . ولئن بحثت عن « مذكراته Son Journal » فلن تجد فيها غير الحب

تُرى كيف يولد الحب ، وكيف ينمو ؟

أجاب ستاندال ، في الباب الذي عقده عن « التبلور Cristallisation » في كتابه : De Phworn عن هذا السؤال وهاك ما يحدث في النفس

١ — الإعجاب ، يلمح المرء الفتاة فيعجب بها

٢ — ثم يحدث نفسه ، ما أحلاها لذة أن تقبلني أو أقبلها إنها لطيفة ، جميلة

٣ — ثم يأمل أن يراها وأن تراه . ويرقب ذلك ...

يخفق بها قلبه كما تضج بها روحه ؟ إسمع أيها القارئ :

إذا ما طاف بالأرض ... شعاع الكوكب الفضي
إذا ما أنّت الريحُ ... وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر ... عيون النرجس الغضّ
بكيت لزهرة تبكي ... بدمع غير مرفض

إقرأها يا صديقي القارئ الشاعر في ليالي الملاح التائه ، واقرأ الأغنيات التي أومأت إليها لتصدق أن الغناء هو الظاهرة العامة في شعر علي محمود طه ، ولتصدق أن علي محمود طه أصبح أغنية في فم الجيل الجديد ، وأن شعره أصبح أنشودة من أناشيد مصر الحديثة ...

(يتبع) دريني خشبة

٤ — وعندئذ يولد الحب

٥ — ويبدأ « التبلور » الأول ، فيشعر المحب بلذة ما بعدها لذة ، وهو يخلع على فتاته الجمال والكمال ، طوال يومه ، فى الطريق ، وفى المكتب ، وفى السرير ، وعند الطعام ... وما يزال يزينها ويزوقها حتى تغدو آية الجمال فى الأرض ، ويحدث بها كما يحدث بغصن شجرة أجرد ، إذا رموه فى أحد مناجم الملح فى « سالزبورغ » . إنه يبقى شهرين أو ثلاثة شهور فإذا أخرجوه ألفوه غصناً من بلور ، يتلألأ ويرف ، وقد رُصِّع ببلورات لماعة من الملح كأنها الدر تخطف الأبصار وتفتن القلوب . فإذا زآها إنسان غير مَن ألقاها ، لم يدر قط أن هذه الدرر كانت ذات يوم غصناً كالحاً أجرد ...

وما يسميه ستاندال « التبلور » هو تزيين الحبيب حبيبته وخلعُ المحاسن عليها ليل نهار . فإذا تم هذا التبلور كانت المحبوبة فى عيني من يحبها أجل مخلوقة فى الدنيا . إنها الجمال نفسه ، ليست من البشر ، ولا كواحدة من النساء ، إنها ملك كريم

ثم لا يسمع بشيء لذ إلا تمنى أن يلذه معها ، ولا يخطر بباله سعادة إلا هفا قلبه ، من أجلها إليها

ومن الملاحظة أن هذا التبلور ضرورة لا بد منها . فالمحب إذا لم تتجدد محاسن محبوبته فى نفسه ، وإذا لم يتخيلها كل يوم ذات حسن لم تكن بلغته أمس ، فإنه لا شك يملّ ، لأنه فى الحال النفسية تلك يعزف عن كل رتيب ثابت ، ويريد كل طريف جديد . وفى أعمال « التبلور » صور فيها كل الطرافة، وكل الجدة

على أن هذا المحب ما يلبث أن يقلق ويضطرب . فلِمَ يضطرب ؟

٦ — إنه يشك فى حبه ، ويلوغ أمله . فبعد أن تضحك له المُنى ، يحس القلق يرتع فى نفسه . يود أن تكون لذائذ الدنيا كلها طوع يديه ، لينعم بها ، هو وفتاته . ولكن اللذائذ لا تواتيه ، والعادة لا تأتيه

٧ — وعندئذ يبدأ التبلور الثانى . إن فكرة حرمانه الحبيبة تدفعه إلى تمجيدها وتزيينها . ويقول لنفسه « إنها جميلة كل الجمال . ليس فى الدنيا أجمل منها . إنها لتنظر إلىّ نظرات باسمات . فهى إذن تحبنى » ولكنه يتساءل : هل من سبيل كى أنال آية حبها ؟ أتحبنى أم تخدعنى ؟

فإذا كان الوصل بعد ذلك ، فالتبلور يقف ، وربما ذاب . وإذا كان الهجر ، فهو يعود ويزداد

ويذهب ستاندال إلى أن التبلور يحدث سريعاً عند المرأة . لأنها على زعمه ، أرهف حساً ، وأرق قلباً . ثم إن لديها الوقت الوسيع لذلك . فهى تطرز وتفكر فيمن تحب . وهى تخيط وتتمثل من تهوى . عمل يدوى دائم ، يرافقه حلم جميل باسم . وبهذا الحلم وذاك العمل تخلع الفتاة على مَن تحب أروع الصفات التى تود أن تكون فى الرجل

ويعتقد ستاندال ، خلافاً لبرنارد شو B. Shaw أن الرجل فى الحب يهاجم ، وأن المرأة تدافع . وأنه يطلب ، فى حين أنها ترفض . وأنه يكون نشيطاً متوقداً ، وتكون هى مذعورة مرعوبة ...

والمرأة تتساءل عند برنارد شو ، كيف أغرى محبى . والرجل يقول ، كيف أنجو من أسرها ، وكيف أصبح طليقاً . أما ستاندال فيعتقد أن الرجل يتساءل : « هل من سبيل كى أنال رضاها » وأن المرأة تفكر فى حبه وتقول : ألا يلهو بعد بحبه ؟ أثابت حبه أم متقلب ؟ لأن النساء يخفن ولذلك لا يظهرن حبهن بسرعة . بل ينتظرن أن يبلون محبهن ويثقن من حبه ....

* * *

تلك نظرية التبلور عند ستاندال الفرنسى ، وبعض آرائه فى الحب . وكتابه فى هذا طريف لطيف ظريف . وفى أدبنا العربى نظرات كثيرة تشبه نظرات ستاندال وشو ، تجدها فى كتاب الزهرة « للأصبهانى » و « طوق الحمامة » لابن حزم ، لعلنا أن نعود إليها ، ونقايس بينها بعد حين

(دمشق) صبحي الدبه المحمد